الفصل الثالث

دراسة المجتمع

منذ آلاف السنين والبشر يلاحظون ويتأملون المجتمعات والجماعات التى يعيشون فيها . ومع ذلك فعلم الاجتماع علم حديث ، لا يزيد عمره على قرن واحد كثيرًا . . وقد وضع أوجيست كونت A. Conte – فى تصنيفه للعلوم – علم الاجتماع من الناحيتين المنطقية والزمنية فى مرتبة تالية على العلوم الأخرى . باعتباره أقلها جميعًا عمومية ، وأكثرها تعقيدًا على الإطلاق . كما لاحظ واحد من أكبر علماء الأنثروبولوجيا المحدثون بأن « علم دراسة المجتمع البشرى لا يزال بعد فى مرحلة طفولته الأولى »[1] .

حقيقة أننا يمكن أن نجد فى كتابات الفلاسفة . والمفكرين الدينيين ، والمشرعين فى جميع الحضارات وعلى مدى جميع العصور بعض الملاحظات والأفكار التى تتصل بعلم الاجتماع الحديث . فبعض الكتب الهندية القديمة * أو الكتابات الفلسفية الإغريقية (مثل كتاب السياسة لأرسطو) تحلل الأنساق السياسية على نحو لا زالت له أهميته بالنسبة لعالم الاجتماع . ورغم ذلك نؤكد أن هناك علمًا جديدًا لدراسة المجتمع ، وليس مجرد اسم جديد فحسب[2] ، قد تأسس فى القرن التاسع عشر. ومن المفيد أن نعرض هنا للظروف التى تم فيها تأسيس هذا العلم . وندرس الخصائص التى تميز علم الاجتماع عن الفكر الاجتماعى السابق عليه[3] .

لعله يمكن تصنيف الظروف التى ظهر فى ظلها علم الاجتماع إلى ظروف فكرية وأخرى مادية ، وسوف أتناولها بالمناقشة وفقًا لهذا الترتيب . وقد كانت جميع تلك الظروف متداخلة بطبيعة الحال مع بعضها . ولا شك أن تأريخًا سوسيولوجيا كفوا لعلم الاجتماع – وهو ما لم يتوفر لدينا بعد – سوف يأخذ هذا التداخل فى اعتباره . ولا أستطيع فى مثل هذه المقدمة الموجزة إلا أن أقتصر على ذكر بعض العوامل الهامة فحسب .

ليس من العسير علينا تحديد الأصول الفكرية الرئيسية لعلم الاجتماع . « ويمكن القول بصفة عامة بأن علم الاجتماع له أصل رباعى يتمثل فى الفلسفة السياسية . وفلسفة التاريخ ، والنظريات

* يشير المؤلف إلى كتاب الأرثاشسترا Arthashàstra من تأليف المفكر الهندى كاوتيليا Kautilya

البيولوجية فى التطور ، والحركات التى قامت تنادى بالاصلاح الاجتماعى والسياسى ووجدت أنه من الضرورى أن تجرى لهذا الغرض دراسات مسحية surveys للظروف الاجتماعية »[٤] ، وقد لعب اثنان من هذه المصادر ، وهما فلسفة التاريخ والمسح الاجتماعى . دورًا عظيم الأهمية فى المراحل الأولى بالذات . وقد كانا نفسيهما من أحدث منجزات التاريخ الفكرى للإنسان .

وتعتبر فلسفة التاريخ كفرع متميز من الفكر الإنسانى من ابتكارات القرن الثامن عشر[٥] . ونذكر من بين مؤسسيها الأب سان بيير Saint-Pierre والإيطالى جيام باتيستا فيكو G. vico وقد عملت الفكرة العامة للتقدم التى ساهما فى صياغتها على التأثير تأثيرًا عميقًا على تصور الناس للتاريخ . وانعكست فى كتابات مونتسكيو وفولتير فى فرنسا . وهيردر Herder فى ألمانيا ، وكتابات مجموعة من الفلاسفة والمؤرخين الاسكتلنديين فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، مثل فيرجسون Ferguson وميلار Millar ، وروبرتسون Robertson وغيرهم . ويبدو هذا الاتجاه التاريخى الجديد واضحًا كل الوضوح فى فقرة من مقال دوجالد ستيوارت المعنون « **سيرة آدم سميث** »[٦] Memoir of Adam Smith، حيث يقول « لابد لنا عندما نقارن مكتسباتنا الفكرية وآراءنا وأساليبنا فى السلوك ونظمنا ، ونحن فى هذه المرحلة الاجتماعية التى نعيش فيها ، بتلك السائدة عند القبائل البدائية ، لابد من أن يثور لدينا التساؤل عن الخطوات التدريجية التى قطعها التحول الاجتماعى ابتداء من الجهود البسيطة الأولى للطبيعة الخام وصولا إلى تلك المرحلة التى بلغت حدًا فائقًا من الاصطناع والتعقد . ويستطرد ستيوارت قائلا أن « هناك نقصًا فى المعلومات الخاصة بكثير من مراحل هذا التقدم ، وأنه لابد من الاستعاضة عن تلك المعلومات بالتخمين المعتمد على « المبادئ المعروفة للطبيعة البشرية » . ثم يقول ستيوارت :

« وسأعطى نفسى حرية إطلاق اسم **التاريخ النظرى أو التاريخ الظنى** Conjectural على هذه الدراسات الفلسفية التى ليس لها بعد اسم مناسب فى لغتنا . ويقابل هذا الاسم فى معناه تقريبًا اسم **التاريخ الطبيعى** Natural History كما استخدامه المستر هيوم Hume وما أطلق عليه بعض الكتاب الفرنسيين اسم **التاريخ التأملى** Histoire Raisonée .

وقد أصبحت فلسفة التاريخ عاملا فكريًا هامًا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وذلك من خلال كتابات هيجل وسان سيمون[٧] . وقد نبعت من هذين المفكرين أعمال كل من ماركس وكونت ، وبالتالى جانبًا من أهم الخيوط فى علم الاجتماع الحديث . ويمكن أن نقدر بإيجاز

الإسهامات التى قدمتها فلسفة التاريخ لعلم الاجتماع بأنها أفكار النمو والتقدم ، على الجانب الفلسفى ؛ ومفاهيم المراحل التاريخية والأنماط الاجتماعية ، على الجانب العلمى ، ويرجع الفضل إلى فلاسفة التاريخ أساساً فى ظهور التصور الجديد للمجتمع باعتباره أكثر من مجرد « المجتمع السياسى » أو الدولة . وقد امتد ، اهتمامهم بحيث شمل كافة النظم الاجتماعية ، وفرقوا تفريقاً بين الدولة وما أطلقوا عليه اسم « المجتمع المدنى » Civil Society . وربما كانت دراسة آدم فيرجسون A. Ferguson المعنونة « **مقال فى تاريخ المجتمع المدنى** » * . (الصادر عام ١٧٦٧) . أفضل نموذج لهذا الاتجاه . ويبدو أن ترجمتها الألمانية قد أمدت هيجل ببعض المصطلحات التى استخدمها وأثرت على الاتجاه الذى اتبعه فى كتاباته الأولى عن المجتمع ويناقش فيرجسون فى هذا « المقال » ، وفى الكتابات التى نشرها بعد ذلك موضوعات : طبيعة المجتمع والسكان ، والأسرة والقرابة ، وتباين المراتب ، والملكية ، والحكومة ، والعادات الاجتماعية ، والأخلاق ، والقانون ، أى أنه كان يتناول المجتمع كنسق من النظم المترابطة المتداخلة . وقد اهتم علاوة على هذا بتصنيف المجتمعات إلى أنماط ، وبتحديد مراحل النمو الاجتماعى . ويمكن أن نجد ملامح مماثلة لهذه فى كثير من كتابات من أطلقنا عليهم اسم فلاسفة التاريخ . فهى تمثل جميعًا إجماعًا مذهلا وتغيرًا مفاجئًا فى اتجاه اهتمام الناس بدراسة المجتمع الإنسانى ، وقد عادت هذه الملامح إلى الظهور فى القرن التاسع عشر فى مؤلفات علماء الاجتماع الأوائل مثل كونت ، وماركس ، وسبنسر .

ويتمثل العنصر الهام الثانى فى علم الاجتماع الحديث فى المسح الاجتماعى ، الذى يرتكز بدوره على مصدرين اثنين . أول هذين المصدرين الاقتناع المتزايد بأن مناهج العلوم الطبيعية ينبغى – وهى أيضًا قادرة – أن تتسع لتغطى مجال دراسة الشئون الإنسانية ، وأن الظواهر الإنسانية يمكن تصنيفها وقياسها . أما المصدر الثانى للمسح الاجتماعى فهو الاهتمام بمشكلة الفقر (أو ما يعرف فى الكتابات الأوروبية المثقفة باسم « المسألة الاجتماعية » انطلاقًا من إدراك الحقيقة التى مؤداها ، أن الفقر فى المجتمعات الصناعية لم يعد بعد ظاهرة طبيعية – كنقمة من الطبيعة أو من الله – وإنما هو نتيجة الجهل الإنسانى أو الاستغلال . وفى ظل هذين العاملين المؤثرين – وهما مكانة العلوم الطبيعية والحركات الرامية إلى الإصلاح الاجتماعى – أخذ المسح الاجتماعى يحتل مكانة هامة فى هذا العلم الجديد لدراسة المجتمع . وأفضل سبيل لتتبع التقدم الذى أحرزه هذا العلم أن ننظر فى تطوره فى المجتمعات الصناعية فى أوروبا الغربية كما يبدو فى بعض المؤلفات الرائدة مثل مؤلف

---

* Essay on the History of Civil Society

السيرجون سنكلير Sinclair المعنون « **وصف احصائى لاسكتلنده** »* (٢١ مجلداً صدرت فى الفترة من ١٧٩١ حتى ١٧٩٩) ، وكتاب السير ف . م . ايدن Eden بعنوان : « **دولة الفقراء** »** (ويقع فى ثلاثة مجلدات ، صدر عام ١٧٩٧) ، ومحاولات كوندرسية Condercet وضع « **رياضيات إحصائية** »[٨] . وفى كتاب « **الفيزياء الاجتماعية** » الذى وضعه كيتليه[٩] Quételet وفى الدراسات التى صدرت بعد ذلك مثل مؤلفات لوبلاى Le Play « **العمال الأوربيون** » (صدر فى طبعته الاولى عام ١٨٥٥ ، ثم صدرت له طبعة ثانية موسعة فى الفترة من ١٨٧٧ – ١٨٧٩)*** ، وبوث Booth « **حياة وعمل سكان لندن** »**** (١٨٩١ – ١٩٠٣) . وقد ظل المسح الاجتماعى من أهم طرق البحث فى الدراسات السوسيولوجية .

ونلاحظ أن هاتين الحركتين الفكريتين ، وهما فلسفة التاريخ والمسح الاجتماعى لم تكونا فى عزلة عن الظروف الاجتماعية فى أوروبا الغربية إبان القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر . وقد أثار هذا الاهتمام الجديد بالتاريخ والتنمية الاجتماعية تلك السرعة وذلك العمق اللذين جرى بهما التغير الاجتماعى ، كما أثارته المقابلة بين الثقافات المختلفة التى كان الناس يعقدونها بفضل رحلات الاستكشاف . كما أن فلسفة التاريخ لم تكن مجرد وليد فى أحضان الفكر وحسب ، وانما هى بنفس القدر بنت ثورتين هما : الثورة الصناعية فى انجلترا ، والثورة الفرنسية ، وبالمثل لم يقم المسح الاجتماعى نتيجة مجرد الطموح فى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العالم الإنسانى ، وإنما نتيجة وجود تصور جديد للشرور والمشكلات الاجتماعية ، تأثر هو نفسه بالإمكانيات المادية للمجتمع الصناعى . فالمسح الاجتماعى لمشكلة الفقر أو أى مشكلة اجتماعية أخرى ، لا يمكن أن يكون له معنى إلاّ إذا كان هناك اعتقاد بأنه من الممكن عمل أى شىء للقضاء على هذه الشرور أو التخفيف من وطأتها . وأعتقد أن انتشار الفقر بين القوى المنتجة الضخمة المتزايدة هو العامل المسئول عن تغير النظرة إلى الفقر ، فلم يعد الفقر مشكلة طبيعية (أو حالة طبيعية) ، وإنما أصبح مشكلة اجتماعية قابلة للدراسة والإصلاح . ولعل هذا يمثل على الأقل عنصرًا هامًّا فى الاقتناع الذى ساد آنذاك بأنه يمكن استخدام المعلومات الدقيقة فى الإصلاح الاجتماعى ، وبأنه إذا كان الإنسان قد

---

* Sir John Sinclair. Statistical Account of Scotland.

** Sir F.M. Eden, The State of the Poor.

*** Le Play, Les ouvriers Européens.

عن فريدريك لوبلاى انظر بالعربية ، نيقولا تيماشيف ، المرجع السابق ص ٧١ وما بعدها .

**** Booth, Life and Labour of the People in London.

استطاع أن يتحكم تحكمًا متزايدًا فى البيئة المادية ، فإنه يستطيع بالمثل أن يتحكم فى بيئته الاجتماعية .

وهكذا يمكننا أن نرجع المرحلة التمهيدية لعلم الاجتماع إلى فترة طولها نحو مائة عام تمتد تقريبًا من ١٧٥٠ حتى ١٨٥٠ ، أو لعلنا نقول أنها تمتد منذ نشر مونتسكيو كتابه « روح القوانين »* حتى ظهور أعمال كونت وصدور الكتابات الأولى لسبنسر . أما الفترة التى تشكل فيها علم الاجتماع كعلم مستقل فتشغل النصف الثانى من القرن التاسع عشر[١٠] ، ويمكننا أن نتبين من العرض الموجز لأصوله بعض السمات التى اتصف بها علم الاجتماع فى بداياته الأولى . فقد كان أولا ذا طابع **موسوعى** ، إذ كان يهتم بالحياة الاجتماعية للانسان فى مجموعها ، وبالتاريخ بأكمله . ثم كان ثانيًا **تطوريًا** ، وذلك تحت تأثير فلسفة التاريخ ، مدعمة بواسطة نظرية التطور الحيوى ، فكان يسعى إلى تحديد المراحل الرئيسية للتطور الاجتماعى . وكان الناس يعتبرونه – ثالثًا – علمًا وضعيًا له نفس طابع العلوم الطبيعية . فقد كانت العلوم الاجتماعية تفهم بصفة عامة إبان القرن الثامن عشر على أنموذج الفيزياء . أما علم الاجتماع فكان يفهم فى القرن التاسع عشر على أنموذج علم الحياة ، ويبدو ذلك واضحًا فى الاهتمام الكبير بموضوع التطور الاجتماعى ، وفى التصور الذى كان سائدًا عند الأغلبية والذى كان المجتمع بمقتضاه كائنًا حيًا . ويبدو الاهتمام العام بالطابع العلمى لعلم الاجتماع أوضح ما يكون فى محاولات صياغة قوانين عامة للتطور الاجتماعى ، فى كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

ومن الطبيعى أن تثير هذه الدعاوى العريضة المعارضة ، وخاصة من جانب أولئك الذين يعملون فى ميادين أضيق وأكثر تخصصًا وتحديدًا ، ومن بينهم المؤرخين ورجال الاقتصاد . وعلماء السياسة . ومن المشكوك – حتى فى يومنا هذا – ما إذا كان علم الاجتماع قد أفلح تمامًا فى أن يسدل الستار على الأطماع العريضة التى كان يدعيها فى أوائل عهده . على أننا يجب أن نميز بين المزاعم المختلفة ، كما نميز بين الدعاوى الخاصة بمرور موضوع العلم ، والدعاوى الخاصة بمكتشفاته . ولم يعد يعتقد أى إنسان اليوم أن كونت أو سبنسر قد توصل إلى اكتشاف قوانين التطور الاجتماعى (على الرغم من أن كثيرين يعتقدون أن كارل ماركس قد توصل إلى ذلك) . ولكن لا يترتب على هذا أن كونت أو سبنسر (أو بالنسبة لغير المؤمنين بماركس أيضًا) قد أخطأوا كل الخطأ فيما ذهبوا إليه حول تحديد مجال علم الاجتماع ، أو أنهم لم يقدموا إسهامات هامة فى سبيل تقدمه ، ويبدو من الواضح أن هناك حاجة إلى علم اجتماعى يختص بدراسة المجتمع ككل ، أو البناء الاجتماعى

* Montesquieu, Esprit des lois.

الكلى ، على أن مثل هذا الادعاء يعنى إثارة مشكلة كيفية إمكان قيام وتقدم علم شامل كهذا ، وكيفية ارتباطه بالعلوم الاجتماعية الأخرى .

وقد نشأت المعارضة لعلم الاجتماع فى مراحله الأولى – إلى حد كبير – عن الإحساس بأنه يستهدف امتصاص العلوم الاجتماعية الأخرى جميعاً وليس مجرد التنسيق بينها ، وقد تخلى بعض علماء الاجتماع فى مؤلفاتهم بعد تلك المرحلة صراحة عن مثل هذه المطامح فنجد مثلا هوبهوس يفهم علم الاجتماع على أنه « علم يتخذ ميدانًا له الحياة الاجتماعية للإنسان بأكملها » ، وليس كفرع تخصص جديد . ولكنه يرى أن العلاقة التى تربطه بالعلوم الاجتماعية الأخرى هى علاقة تبادل وتأثير مشترك فيقول : « . . ليس علم الاجتماع العام علماً مستقلا مكتفيا بذاته قبل أن يبدأ التخصص ، ولاهو مجرد تركيب من العلوم الاجتماعية يقوم على التجاوز الآلى لنتائج هذه العلوم ، وإنما هو فى حقيقة الأمر مبدأ يبعث الحياة يتخلل كل أنواع البحوث الاجتماعية ، يغذيها ويتغذى منها بدوره ، يحفز إلى الدراسة والبحث ، ويربط بين النتائج المتباينة ، يعرض حياة الكل فى الأجزاء المكونة له ، وينتقل من دراسة الأجزاء إلى إدراك الكل إدراكًا أكمل وأشمل »[١١] .

كذلك فعل دوركيم ، فعلى الرغم من أنه كان مهتما بصفة خاصة بالتأكيد على استقلال علم الاجتماع وبتعيين مجال الظواهر التى ينبغى أن يتناولها علم الاجتماع بالدراسة ، ورغم ذلك لم يزعم أن علم الاجتماع يمكن أن يكون علما موسوعيًا ، أو أنه يمكن أن يؤدى واجبه بمعزل عن العلوم الاجتماعية الأخرى . لقد تصور دوركيم – على نحو قريب من هوبهوس إلى حد كبير – انتشار الاتجاه السوسيولوجى ، وبالتالى حدوث تحول فى العلوم الاجتماعية الخاصة من الداخل . ولم يفكر إلا فى مرحلة لاحقة فى إمكان قيام علم اجتماع عام ، يتضمن قوانين أكثر عمومية تستند إلى القوانين التى تم التوصل إليها فى المجالات الخاصة للعلوم الاجتماعية الفرعية[١٢] . وقد أوضح دوركيم فى كلمة المحرر التى كتبها للعدد الأول من « حولية علم الاجتماع » Année Sociologique أن « جهودنا سوف تتجه أساسًا إلى العناية بالدراسات التى تتناول موضوعات محددة أشد التحديد ، تندرج تحت فروع خاصة لعلم الاجتماع إذ طالما أن علم الاجتماع لا يمكن أن يكون تركيباً من هذه العلوم الخاصة ، وطالما أنه لا يمكن أن يتضمن سوى مقارنة بين نتائجها ذات الطبيعة الشديدة العمومية ، فإنه لا يمكن قيام علم اجتماع عام إلا بالقدر الذى تنمو به هذه الفروع المكونة له »[١٣] .

ويكاد يكون من العسير أن ندعى أن تلك الأهداف المتواضعة التى حددها كل من هوبهوس ودوركيم قد تحققت على نحو يمكن أن نتفق عليه جميعًا . وقد كان دوركيم أكثر توفيقًا من هوبهوس

فى إدخال الاتجاه السوسيولوجى إلى علوم اجتماعية أخرى . فقد تأثر عدد كبير من الدارسين الفرنسيين – الذين ينتمون إلى تخصصات متنوعة – بمؤلفات دوركيم ، وكانت حافزًا لهم لطرق موضوعات معينة ، فنجد فى القانون كلا من دافى Davy ، وليفى برول Levy—Bruhl ، وفى الاقتصاد سيميان Simiand . وفى الأنثروبولوجيا موس Mauss ، وفى التاريخ مارك بلوش Marc Block . وجرانيه Granet . وفى اللغويات كاهان Cahen ، وميية Meillet ، ونكتفى بهذه الأسماء باعتبارها أبرز أفراد هذه الطائفة من العلماء ، على أن أفكار دوركيم لم تنتقل من خلال مؤلفاته فحسب ، وإنما انتقلت بدرجة أكثر فعالية من خلال « حولية علم الاجتماع » التى أسسها فى عام ١٨٩٨ . ويمكننا أن نقول أن مفهومه عن علم الاجتماع كان متجسدًا فى طريقة تنظيم موضوعات « حولية علم الاجتماع » نفسها ، فقد كان كل عدد من أعداد الحولية يضم دراسة واحدة أو دراستين مونوجرافيتين أصليتين ، وعددًا من الدراسات المسحية – مكتوبة من وجهة نظر علم الاجتماع – للكتابات التى صدرت خلال ذلك العام فى بعض مجالات البحث الاجتماعى المستقلة . وقد برر دوركيم ذلك التنظيم بقوله : « نعتقد أن علماء الاجتماع فى حاجة ملحة إلى الوقوف بشكل منتظم على البحوث التى تجرى فى العلوم الاجتماعية الخاصة مثل : تاريخ القانون ، والعادات الاجتماعية ، والدين ، والاحصاء الاجتماعى والعلوم الاقتصادية . . إلخ . فى هذه البحوث توجد المواد التى ينبغى أن نعتمد عليها فى إقامة علم الاجتماع »[١٤] .

أما فى ألمانيا فقد حدث كما يقول « ريمون آرون »[١٥] أن صادف علم الاجتماع رفضًا فى بادئ الأمر بسبب طبيعته الموسوعية التى لازمته فى تلك المرحلة . وقد بذلت فى ألمانيا – أكثر من أى مكان آخر – محاولات لتعريف وتحديد ميدان دراسة علم الاجتماع ، ولكن عن طريق تأسيس علم تجريدى يدرس « صور » الحياة الاجتماعية . وقد لعب جورج زميل Simmel الدور الأكبر فى هذا الصدد ، ولكننا نجد أنه قد ساوق هذه الجهود اهتمام مستمر بالتفسير التاريخى وبعلم اجتماع الثقافة Sociology of Culture كان للماركسية فضل التشجيع عليه . وقد اجتمعت هذه الاهتمامات المختلفة فى كتابات ماكس فيبر M. Weber الذى نلحظ فى مؤلفاته – كما هو الحال فى مؤلفات دوركيم – نفس الحرص على تطوير اتجاه سوسيولوجى داخل العلوم القائمة : التاريخ ، والقانون ، والاقتصاد ، والسياسة ، والأديان المقارن .

وهكذا استهدف علماء الاجتماع الكلاسيكيون – وخاصة دوركيم – إرساء حدود العلم ومناهجه ، وإبراز أهميته من خلال دراسة الظواهر الاجتماعية الرئيسية . وكذلك تأسيس رابطة

وثيقة بينه وبين العلوم الاجتماعية القائمة . ثم حدث أن انحرف علم الاجتماع فيما بعد عن هذه الأهداف فى نقاط معينة . فنلاحظ فى المقام الاول عودة علماء الاجتماع – لفترة – إلى الاهتمام من جديد بوضع أنساق نظرية عامة . غير أنه يمكن توجيه النقد إلى هذا الاهتمام من عدة نواح . فيبدو أولا من غير الحكمة محاولة وضع مثل هذه النظريات فى مرحلة لم يتوفر فيها لدينا بعد سوى عدد قليل جدا من التعميمات الأكيدة على مستوى منخفض . كما تميل هذه الجهود النظرية مرة أخرى إلى عزل علم الاجتماع عن العلوم الاجتماعية الأخرى . أو إلى اظهاره من جديد بمظهر العلم « الامبيريالى » الذى يستهدف إخضاعها جميعًا له .

أما فى ميدان البحوث فنلاحظ ميلا إلى التركيز على موضوعات تمثل « فضلات » العلوم الأخرى ، لا يدعها لنفسه أى من العلوم الاجتماعية الأخرى ، وتتصف بطابع « المشكلة الاجتماعية » . فقد أظهرت إحدى الدراسات المسحية الحديثة لعلم الاجتماع الأمريكى أن أهم ميدانين من ميادين البحث فى علم الاجتماع – من واقع عدد مشروعات البحوث التى أجريت فيها – فى عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ هى : دراسات المجتمع الحضرى والمجتمع المحلى ، والزواج والأسرة . وقد كان الاتجاه فى بعض البلاد الأخرى قريبًا من هذا .

على أن هذه ليست كل القصة ، فلدينا فى الواقع عديد من الشواهد على أن الاتجاه السوسيولوجى قد انتشر على نطاق واسع فى العلوم الاجتماعية الأخرى . وأفضل مثل على هذا علم السياسة . إذ يرجع الفضل إلى علماء الاجتماع فى إجراء عديد من البحوث أو التنبيه إلى أهميتها فى هذا الميدان ، ومنها دراسات الأحزاب السياسية (التنظيم ، البيروقراطية ، القادة) ، والجماعات الضاغطة . والانتخابات والسلوك الانتخابى ، والإدارة العامة (البيروقراطية ، وفئات الصفوة)[١٧] . وتمثل هذه البحوث جانبًا كبيرًا من الدراسات الجارية عن النظم السياسية . وأصبح من الأمور المتزايدة الصعوبة التمييز بين علم السياسة وعلم الاجتماع السياسى . أما بالنسبة لعلم الاقتصاد الذى يتمتع بنسق نظرى ذى مستوى رفيع ، فكان تأثير علم الاجتماع أقل كثيراً . ولو أن الدراسات السوسيولوجية عن تنظيم العمل فى المؤسسات الصناعية ، وعن العلاقات الصناعية ، وتلك التى أجريت مؤخرًا عن عمليات التصنيع . قد ساهمت جميعًا مساهمة أساسية فى إثراء المعرفة الاقتصادية . كما أدى نمو التخطيط الاقتصادى إلى إبراز أهمية الجوانب السوسيولوجية فى السلوك الاقتصادى[١٨] .

وبوسعنا الآن أن نحدد مكانة علم الاجتماع فى دراسة المجتمع بدقة أكبر . مع أننا لا نستهدف من ذلك عزله عن بقية العلوم الأخرى . لقد كان علم الاجتماع (وكذلك

الأنثروبولوجيا الاجتماعية) أول علم يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية ككل ، بالنسق المركب من النظم الاجتماعية والجماعات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع . والمفهوم الأساسى ، أو الفكرة الموجهة . فى علم الاجتماع هى البناء الاجتماعى . فمن هذا المفهوم صدر اهتمام عالم الاجتماع بجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة التى لم تكن تدرس من قبل إلا بطريقة غير منهجية ، وهى : الأسرة ، والدين والأخلاق والتدرج الاجتماعى ، والحياة الحضرية . وقد أشرنا من قبل إلى أن الاهتمام ببعض هذه الموضوعات « الفضلات » قد يزيد إلى حد المبالغة ، غير أن دراستها تمثل جزءًا هاما من علم الاجتماع ؛ وإذا نظرنا إليها نظرة سليمة فلا يمكن فصلها عن دراسة النظم السياسية والاقتصادية . أما الإسهام الذى ينبغى أن يقدمه علم الاجتماع فى ميادين العلوم المستقرة : كعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة ، والقانون . إلخ فهو إظهار الصلة بين النظم موضوع الدراسة والبناء الاجتماعى ككل ، والتأكد على أهمية الدراسة المقارنة . أن التخصص أمر حتمى لا محيد عنه فى دراسة المجتمع الإنسانى ، ولكن عالم الاجتماع يرى أنه يجب أن يتم هذا التخصص داخل إطار تصور عام للبناء الاجتماعى ، وأن يرتبط – بوعى – بتنوع النظم الاجتماعية والبناء الاجتماعى . القائم على الدراسة المقارنة الواسعة . ولا يعنى هذا أن علم الاجتماع يحمل معه خطة شاملة للبناء الاجتماعى يسلمها لكل متخصص فى ميدان معين . فالواجب أن يكون معظم علماء الاجتماع أنفسهم متخصصين ؛ وهم فى سبيلهم إلى الاتجاه بشكل متزايد نحو التخصص فى المستقبل ، على الرغم من أن بعضهم سوف يظل مهتما أساسًا بالملامح العامة للبناء الاجتماعى . وإذن فما نحن بحاجة إليه هو قيام تعاون وثيق بين علماء الاجتماع والعماء الاجتماعيين الآخرين . ويعنى هذا التعاون ضمنًا أن عالم الاجتماع ينبغى أن يتمتع بقسط من الكفاءة فى أحد العلوم الاجتماعية الخاصة ، وأن يتوفر لدى المتخصصين قسط من المعرفة بعلم الاجتماع العام .

ويتمتع علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ببعض الميزات فى هذه الأمور بسبب طبيعة المجتمعات التى يدرسونها عادة . فعلى الرغم من أن اهتمامهم الرئيسى كان موجها عادة إلى القرابة والطقوس . إلا أنهم استطاعوا دائمًا دراسة النظم الاقتصادية والسياسة للمجتمعات القبلية دون مخافة التعدى على مجالات دارسين آخرين . ولقد أصبح موقفهم خلال السنوات الأخيرة أشبه بموقف رجال الاجتماع ؛ فقد أدى تصنيع كثير من المجتمعات القبلية (كما هو الحال فى بعض البلاد الأفريقية) إلى نمو البحوث التعاونية التى تضم اقتصاديين ، وعلماء سياسة ، وأنثروبولوجيين ، وعلماء اجتماع وغيرهم [١٩] .

هذا وقد بدأت الدراسة العلمية المنظمة للمجتمع الهندى خلال عهد الاحتلال البريطانى ،

على الرغم من أن الهند – شأنها شأن أوروبا فى هذا الصدد – تحفل بتراث طويل من الفكر الفلسفى المتصل بمشكلات المجتمع . وكانت أول العلوم الاجتماعية تطوراً الاقتصاد والانثروبولوجيا الاجتماعية . فارتبط العلم الأول بنمو الاقتصاد الصناعى والتجارى وارتبط الثانى (كما قيل فى أحد المصادر)[٢٠] بالحاجة إلى خبراء استشاريين فى شئون إدارة المناطق القبلية . أما علم الاجتماع فلم يبدأ يشغل مكانة هامة بين العلوم الاجتماعية إلاّ فى السنوات الأخيرة ، ويمكن أن ندرك بسهولة أسباب نموه السريع فى الوقت الراهن . فالهند تمر منذ حصولها على الاستقلال بثورة اقتصادية واجتماعية ، ولا يمكن التصدى لكثير من مشكلات هذه الثورة إلاّ بمساعدة الدراسات السوسيولوجية . هذا فى نفس الوقت الذى يلعب فيه عالم الاجتماع دوراً ذا أهمية خاصة فى الهند ، ذلك أن علم الاجتماع يركز اهتمامه بالذات على بعض العناصر الأساسية فى البناء الاجتماعى . فالدين ونظام الطوائف (الطبقات المغلقة) Caste System تمثل عوامل ذات أهمية حاسمة فى النمو الاجتماعى الهندى ، ولا يستطيع أى عالم اجتماعى أن يقدم على تجاهل آثارها على التقدم الاقتصادى ، والتنظيم السياسى ، والقانون ولم يكن هذا الوضع مفيداً للبحوث السوسيولوجية وحسب ، ولكنه أفاد ، كذلك فى قيام تعاون وثيق بين العلوم الاجتماعية ، وقد أولى الدكتور انستى Anstey فى دراسة أصولية عن التنمية الاقتصادية[٢١] ، مزيد اهتمامه لموضوع النتائج الاقتصادية للطائفة كما لاحظ عديد ممن كتبوا عن السياسة الهندية تأثير الدين (الأحزاب الهندوكية) وخاصة الطائفة على شئون الحياة السياسية . من ذلك مثلا الميل إلى اختيار المرشحين للبرلمان من بين صفوف الجماعات الطائفية الهامة ، وتحول الطوائف نفسها إلى جماعات ضاغطة . كذلك فان القانون يمثلّ – شأنه شأن نسق الضبط الاجتماعى بأكمله – بالمفاهيم الدينية . ومن الصعب دراسة هذا الميدان بمعزل عن الدين ، لذلك نقول إن ظروف المجتمع الهندى تدفع العلوم الاجتماعية الخاصة نحو الاتجاه السوسيولوجى .

وهناك جانب آخر لدراسة المجتمع الإنسانى ينبغى أن نأخذه هنا فى الاعتبار . لقد وجهت الانتقادات إلى رواد علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر بسبب تصورهم الموسوعى لطبيعة هذا العلم . غير أنه كانت لهذا التصور ميزة كبرى ، وهو أنه تطلب معرفة واسعة بمختلف أنماط المجتمعات والصور التاريخية . فعلى الرغم من أن علم الاجتماع قد قام فى أوروبا الغربية ، وكان إلى حد كبير استجابة لدخول أوروبا مرحلة المجتمع الرأسمالى الصناعى ، فإن هؤلاء الدارسين الأوائل لم يقصروا اهتمامهم على المجتمعات الأوروبية وحدها . فقد اعتبروا أن جميع المجتمعات الإنسانية تكون موضوع الدراسة فى علمهم هذا[٢٢] . وعلى النقيض من هذا نجد علم الاجتماع الحديث

يتميز بأن مجال اهتمامه أضيق من هذا كثيرًا . فقد اشتغلت الغالبية العظمى من علماء الاجتماع بدراسة قطاعات صغيرة جدا من مجتمعاتهم التى يعيشون فيها . وهناك عدة أسباب مسئولة عن حدوث هذا التغير ؛ نذكر منها على سبيل المثال : التراكم الهائل فى المعلومات (الذى جعل من الصعب – وربما من المستحيل – أن يوجد ذلك النوع من الدراسات الذى نجده فى مؤلفات هوبهوس أو ماكس فيبر ، وقلة الميل إلى الدراسات المقارنة ، والتصور الخاطئ للتخصص ، ولعل علم الاجتماع لم يكن فى يوم من الأيام أكثر تعصبًا لمجتمعه منه فى خلال العقود القليلة الماضية . ومن حسن الحظ أن لدينا من الدلائل ما يشير إلى أن الموقف فى طريقه إلى التغير مرة أخرى : فهناك إحياء واضح للدراسات المقارنة ، وقد بدأ رجال الاجتماع يبارون الانثروبولوجيين الاجتماعيين فى اهتمامهم بإجراء البحوث الميدانية فى مجتمعات غير مجتمعهم ونلاحظ أن هذه الدراسات المقارنة تختلف من نواح هامة عن تلك الدراسات التى كانت تجرى فى القرن التاسع عشر . فهى تقتصر على طائفة أكثر تحديدًا من الظواهر ، كما أنها تعتمد بشكل متزايد على التعاون الدولى ، وليس على العمل المنفرد لباحثين أفراد ولكنها تتشابه معها فى سعيها نحو معرفة عامة واسعة بأنماط البناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية ، وفى نظرتها إلى المجتمع الإنسانى نظرة تتجاوز السمات الخاصة للمجتمع المحلى الذى ينتمى إليه رجل الاجتماع .

وتقترب هذه السمات المميزة لعلم الاجتماع الغربى بالموقف فى الهند . فتطور علم الاجتماع فى الهند يرجع إلى حد كبير إلى نفس العوامل التى كانت ماثلة فى مرحلة مبكرة فى أوروبا ، وهى : ظهور مشكلات اجتماعية جديدة ناشئة عن التغير الاجتماعى والاقتصادى السريع ، والرغبة فى التحكم فى هذا التغير وتوجيهه ، لذلك كان من الطبيعى أن يتركز اهتمام علماء الاجتماع على تحليل البناء الاجتماعى الهندى . ولكن سيكون من سوء الحظ لو أن دراسة المجتمع أخذت تعنى هنا أيضًا – دراسة المجتمع الذى ينتمى إليه الباحث فقط . فهناك فرصة كبرى لنمو الدراسات المقارنة ، وذلك أولا : من خلال اتخاذ مشكلات البناء الاجتماعى والتغير الاجتماعى فى المجتمعات الآسيوية كإطار للبحث ، وثانيًا : بما أن الهند تمر بثورة صناعية تشبه فى كثير من جوانبها تلك الثورة التى مرت بها أوروبا فى الماضى ، فلابد من الاضطلاع بدراسات مقارنة لعمليات التصنيع والتحضر فى ظروف بنائية وثقافية مختلفة .

إن المجتمع الإنسانى – كما أعلن كونت – ظاهرة بالغة التعقيد . ويستحيل دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية دون قيام تخصص . ولكن يبدو أن التوصل إلى تقسيم مرض لموضوع الدراسة فى شئون المجتمع الإنسانى أكثر صعوبة منه فى دراسة العالم الطبيعى . ويرتكز تقسيم العمل

حالياً بين العلوم الاجتماعية على بعض السمات التقليدية التى يمكن إدراكها بسهولة ، كالنظم السياسية ، والاقتصادية ، والدينية والأسرية . غير أن قدوم علم الاجتماع كان يعنى ضمنا تحدياً لهذا التقسيم التقليدى ، ولكنه لم يتم مع ذلك داخل علم الاجتماع نفسه إلى حد ما . وعلى أية حال فلقد تطلب التعاون بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة قيام تخصص فى علم الاجتماع وفقاً لهذه الأسس . ويبدو أن هذا التصنيف على أساس « عناصر البناء الاجتماعى » هو أفيد أساليب التصنيف جميعاً . ولكننا يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أمرين هامين :

أولا : نلاحظ – كما أشار جيرث Gerth وميلز Mills – أن استقلال هذه النظم المختلفة محدودة . ويقولان فى هذا الصدد : « نجد فى المجتمعات الأقل تطوراً من المجتمعات الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكذلك فى المجتمعات الأكثر تطوراً ، أن أى من الوظائف التى عزلناها قد لا تكون لها نظم مستقلة لإشباعها . بل أن تحديد أى النظم الموجودة على نحو مستقل إلى حد ما يعتبر من الموضوعات التى ينبغى دراستها فى أى مجتمع من المجتمعات »[٢٣] .

الأمر الثانى : من الواضح أن الاهتمام العلمى المتزايد بحل المشكلات النظرية ، والبحوث التى تتم بالتعاون بين علوم مختلفة ؛ سيؤدى إلى ظهور تقسيم جديد لموضوع العلم ، على أساس أنماط المجتمع ، والظواهر الصغيرة أو الكبيرة الحجم . . وما إلى ذلك . ولا زال من الملائم – لأغراض الوصف والعرض – تناول الظواهر الاجتماعية تحت التقسيمات التقليدية ، ولكن يجب ألا نفترض أن تقسيم العمل العلمى سوف يلتزم دائماً بهذه التقسيمات .

هوامش الفصل الثالث

(١) A.R. Radeliffe-Brown, Structure and Function in Primitive Society (1952)

(٢) كان أوجيست كونت هو الذى أطلق على هذا العلم الجديد اسم « علم الاجتماع » Sociology ولكننا نجده مرة بأسف لهذه الطبيعة المختلطة للكلمة ، إذ تشتق من الكلمة اللاتينية Socius والكلمة الإغريقية Logos غير أنه يعود فيرى أن هناك نوعًا من التعويض عن هذا القصور الاشتقاق ، من حيث إنه يذكرنا دائمًا بالمصدرين التاريخيين : المصدر الفكرى ، والمصدر الاجتماعى ، اللذين صدرت عنهما الحضارة الحديثة . انظر كتابه : « نسق السياسة الوضعية » .

System of Positive Polity (trans. S.H. Bridges), Vol. I, p. 326.

(٣) تؤكد كتب التاريخ للفكر الاجتماعى دون حق – على وجود نوع من الاستمرار فيه . ولعله من المفيد والكاشف لكثير من غوامض الأمور أن يوضع لعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الحديثة تأريخ مماثل لذلك الذى وضعه بترفيلد Butterfield للعلوم الطبيعية فى كتابه « أصول العلم الحديث » The Origins of Modern Science (الصادر فى لندن عام ١٩٥٠) ، حيث يبرز التغيرات الجذرية التى حدثت تجاه العالم المادى الطبيعى .

(٤) M. Ginsberg, Reason, and Unreason in Society (1947). p. 2.

(٥) يجب أن نستثنى من هذا مؤلفات الفيلسوف المؤرخ العربى ابن خلدون الذى عاش فى القرن الرابع عشر . فمقدمته للتاريخ العام تعرض على نحو فذ نظرية فى التاريخ تسبق نظائرها عند الكتاب الأوروبيين فى القرن الثامن عشر ، بل وتسبق كارل ماركس أيضًا . ولكنها تمثل فى نفس الوقت إنتاجًا لرجل فذ لم يكن له سلف ولم يترك بعده خلف يواصل استكمال عمله . قارن شارل عيسوى : « فلسفة عربية للتاريخ » .

An Arab Philosophy of History (2nd ed. 1955).

(٦) Dugald Stewart, Works, Vol. 10, pp. 33-4

(٧) للحصول على معلومات عن تطور فلسفة التاريخ وعن دراسات بعض الكتاب الذين ورد ذكرهم ، انظر :

R. Flint, History of the Philosophy of History (1893) and J.B. Bury. The Idea of Progress (1920).

(٨) See. G.G. Granger, La mathèmatique Social du Marquis de Condorcet, (Paris 1956).

عن كوندرسيه انظر بالعربية : د . عاطف أمين وصفى ، كوندرسيه ، سلسلة نوابغ الفكر الغربى : القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .

(٩) A Quètelet, Sur l'homme et le dévelopment de ses facultés, ou essai de physique sociale (1835).

عن كيتليه انظر بالعربية : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع . طبيعتها وتطورها ، ترجمة د . محمود عوده وآخرون ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ ، ص ٦٩ وما بعدها .

(١٠) عن تاريخ علم الإجتماع انظر :

H. Stuart Hughes. Consciousness and Society (London 1959), and Heinz Maus, A Short History of Sociology (London 1962).

(١١) L.T. Hobhouse, Editorial Introduction. The Sociological Review, (London) I 1898.

(١٢) See especially Emile Durkheim, "Sociologie et Sciences, Sociales" Revue Philosophique LV, 1903, and "On the Relation of Sociology of the Social Sciences and to Philosophy",
Sociological Papers (London), I. 1904.

(١٣) Année Sociologique, 1. 1898, p. IV.

(١٤) نقلا عن « جولية علم الاجتماع » ؛ العدد الأول ، ١٨٩٨ . وقد عادت « حولية علم الاجتماع » إلى الظهور بعد توقفها (للمرة الثانية) بعد عام ١٩٤٥ ولا زالت مجلة علمية قيمة تخدم مجموعة من العلوم الاجتماعية .

(١٥) Raymond Aron, German Sociology (English Translation, London 1957), p. 1.

(١٦) R.H. Zetterberg (ed.), Sociology in the United States of America (UNESCO, 1956) p. 18.

(١٧) يمكن الوقوف على حجم الدراسات السوسيولوجية فى هذا الميدان من تقريرين عن اتجاهات البحوث نشرا فى مجلة Current Sociology، السنة الثالثة (العدد الرابع) ١٩٥٤ – ١٩٥٥ بعنوان « السلوك الانتخابى » Electoral Behavoir بقلم G. Dupeux والمقال الثانى : السنة السادسة (العدد الثانى) ١٩٥٧ « علم الاجتماع السياسى Bendix and Lipset تأليف بندكس وليبست Political Sociology

(١٨) لم نشر إلى هذه الأمور إلا كأمثلة فقط . فالعلاقات المختلفة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى سوف تدرس بشكل أكمل فى الفصل الرابع .

(١٩) ومن النماذج الطيبة لهذا ؛ البحوث التى يجريها معهد « رودس ليفنجستون » Rhodes-Livingstone فى روديسيا .

(٢٠) R.N. Saksena, "Trends in the Teaching of Sociology and Social Research in India, The Journal of Social Sciences (Agra), I (1), 1958, p. 3.

(٢١) V. Anstey, The Economic Development of India, (4 The revised edition, 1952).

(٢٢) حقيقة أنهم كانوا يميلون إلى أن يخصوا المجتمعات الغربية بأهمية فائقة ، باعتبار أنها وصلت إلى مرحلة من الحضارة قد لا تصل إليها المجتمعات الأخرى إلا بعد أن تمر بنفس مراحل التطور . وبهذه الطريقة بركونت اقتصار بحوثه على « صفوة أو رواد الإنسانية » (أى الأمم الأوربية) . وليست الفكرة بغير أساس على الإطلاق ، من حيث إن العلوم والتكنولوجيا الغربية كانت العوامل الرئيسية فى تحويل العالم الحديث إلى الحالة التى صار إليها .

(٢٣) Hans Gerth and C. Wright Mills, Character and Social Structure, (London, 1954). p. 27.